أجبت الهوى لما دعانى بزفـــــــرة تقنَّعْتُ منها - أن ألام - ردائيـــا

وربما استوفقه حنين الأبوة بشكل خاص سواء منه ما عرضه من موقف والديه خوفا عليه وإشفاقاً ، أو موقف الأبوة من جانبه هو شخصيا ، وأمر ابنته التى راحت تبكى فَرَقاً خوفاً من مغبة سفره ، وما تتوقعه من طول البَيْن الذي سيفصل بينه وبينها ، وكذا ما كان من عاطفة الزوجة التي راح يصورها فى إطار مجمل تلك العواطف .

ولا يكاد سبيل الحنين يتوقَّف إلا من خلال توقفه عند ذكريات الماضى ، والاستغراق فى تصوير فروسيته وقوته من خلاله ، وعندئذ نجده ينتقى من ألفاظه وصوره ما يتسق مع جلال ذلك الماضى ، ويحكى عظمته ويروى قصة مجده ، وفى كلٍّ من هذه الاتجاهات نجده موحِّد العاطفة غير متناقض ولا منقسم على نفسه ، وإن تباينت صيغ حياته بين صعلوك ومجاهد ، ولكنه يظل مشدوداً إلى كل مواد الحنين التى تشدُّه إلى ذلك الماضى بذلك العمق وتلك الضرورة النفسية .

فإن شئنا الانتقال معه من محاور عاطفته إلى محاور إبداعه تراءت لنا صوره الجزئية كاشفة عن شغف خاص بها ، خاصة من المنظور الاستعارى الذى باع مَن خلاله ضلالته واشترى هداه ، أو تذكره من يبكى عليه فما وجد سوى سيفه ورمحه وجواده ، وهى صور ترد على وجه السرعة فى زحام الخط الانفعالى الموحِّد الذى يصدر عنه ويتعلق به ، وكأنها ترتبط - فى نهاية المطاف - بذلك النسيج التصويرى العام الذى مثلَّته اللوحات الفنية الكبرى حين راحت تستوعب حالاته النفسية الممزَّقة ، خاصة منها مشهد الوداع وما أفاض فيه من تفاصيل دقيقة بين مشهد أبوَيه ، إلى مشهد تشاؤمه من الظباء السانحات ، إلى موقف ابنته وزوجته ... إلخ ، وهو ما يمتد لديه - تصويراً أيضاً - عبر لوحة رثاء النفس ومشهد حفر القبر ، وردود الفعل لديه من واقع عالم الذكرى من الحنين إلى سُهَيْل كرمز آخر من رموز تلك المواطنة الملحة على ذاكرته .

كما لا يخفى حرص الشاعر على أدائه الفنى المتميز حتى على المستوى الشكلى من انتقائه لبحر الطويل ، وإيثاره كثافة حركاته وسكناته بما يتناغم مع قلقة واضطرابه ، وهو ما يتأكد من عمده إلى تكرار صوتى مقصود أو غير مقصود ، ولكنه يظل متجانسا بشكل مؤكد مع حالته الشعورية ، خاصة بين الغضا والرمل والأهل والأصدقاء ، وكأنما اقترب مالك